النزعات المختلفة
فى فهم البلاغة

يقـر العالم نـظريته، ويبـرهن على رأيه، ولا يكاد ينتـهى من تقـريره البرهان حتى تخرج الحـقيقة من نفسه إلى نفوس سامـعيه، وتظهر آراؤه لدى تلاميـذه جلية واضـحة، وينتـقل من تلاميـذه إلى غيرهم، وتدخـل فى مائة نفس، وتملأ ألف رأس، كما خـرجت من نفس قائلها، وكما قـررها الأستاذ الأول، لا تؤثر فيها نفس أخرى، ولا تغيرها آثار الناس. فالقضية القائلة "إن مجموع زوايا المثلـث يساوى قائمتين"، والقضيـة القائلة "إن الاحتكاك يولد حرارة"، لا تزال هى هى فى كل رأس وعند أى إنسان.

أما فى البـلاغات وفى أنواع الفنون فالأمر غـير ذلك. لأن أثر الكاتب لابد أن يكون ظاهرًا فـيهـا ظهورًا تامًـا. فهو الذى يمـيزها من سـواها ومن الأذواق الأخرى، وهو الذى يكسـبها رونقًا وجـمالا، أو يجعلهـا ثقيلة على النفس. ولكن ذوق الـكاتب أو الشـاعـر لا يتـفق مع كل نفس، ولا يفـهم بطريقة واحدة، لاختلاف الأذواق فى طرق الإدراك التى يرجع إليها فى الحكم على الفنون وفى تذوق الجمال. ولذلك يختلف الناس فى تقدير وقبول البيت والقصيدة من الشعر، كذلك الحال فى الموسيقى والتصوير: تكون هذه الصورة جميلة مقبولة لدى إنسان، وغير مقبولة عند آخر. ونجد فلانًا الموسيقار الشهير له طائفة تحبه وترغب فى سماع صناعتـه، لأن نغماته شجية، وهؤلاء يميلون للحزن والابتئاس. على حين أننا نجد آخرين لا يرغبون فى هذا النوع الذى لا يحمل على السرور. غـير أن هذه الفروق فى الأذواق تقل فى جمـاعة تبروا

على طريقة واحدة، وعـاشوا فى بيئة واحدة، وفى زمـان واحد. ولكن متى كان للعواطف أثر فى إدراك الجمال والحكم عليـه، كان للخلاف مجال واسع فى تقـويمهـا. هذا الاختـلاف فى الفـهم والإدراك هو الذى يحيى ويمـيت المذاهب والأفكار المخـتلفـة فى كل زمان. ومـن هنا تنشأ الحـركـة الفكرية، واختلاف المذاهب والأطوار، وتـتولد المذاهب الكتابية، أو مـذاهب البلاغة، لأن أثر الأفكار وأثر حركـة العقول يظهـر دائمًا فى بلاغات الأمم الحـية. إذ البلاغات ليست إلا صورة من حركـات الأفكار. كما حصل فى القرن الثامن عشر فى فرنسا، حيث انتشرت الفلسـفة وانحط الخيال وسقطت منزلة الشعر. وفى القرن التاسع عشر، حيث ابتدأت البلاغة بالمذهب الوجدانى، ثم بمذهب الطبعيين ثم بمذهب الحقائق، وكـما حصل فى بلاغة العرب أن انحطت منزلة الشعر عند ظهور الإسلام - على رأى بعض الأدباء - أى قل احترام المسلمين للشعر فى ذلك الوقت، لاشتغالهم بالدين ونشر دعوته[1].

ولما أسس بنو أميـة دولتهم انتـشرت أنواع الهجـاء فى الشعـر، وشجع الخلفاء الـشعراء على مـدحهم وذم أعـدائهم، بما كانوا يفـيضون علـيهم من العطايا والأموال الكثيرة، وظهرت كل أنواع الشعر، وانتشر الغزل، وظهر كم كبار رجاله جميل وكثير وابن أبى ربيعة وغيرهم، وأخذ يظهر المجون. وبينما كان هؤلاء وغيرهم ممن أتى بعـدهم زمن العباسيين يفهمـون البلاغة نوعًا من جمال القول، وضربًا من تسلية النفس، وشيـئًا من المجون والخلاعة، وأحيانًا آلة للدفاع عن النفس والأهل، ووسيلة من وسـائل الكسب، جاء علماء اللغة

(١) وإن كانت بلاغة الشعر لم تنحط بل ارتقت بتأثيـر بلاغة القرآن، وكل ما حصل هو عدم الاهتمام كما كان ذلك قبل الإسلام، لأن بلاغة القرآن محت كل بلاغة غيرها.

والأدب، كالأصمعى وأبى عبيدة وغيرهم؛ فلم يحفلوا بالمحدثين ولا بأشعارهم، لأنهم كانوا ينظرون إلى الشعر نظرة أخرى غير نظرة أصحاب الفنون، وكادوا يقصرونه على استنباط الأدلة اللغوية، وجعلوا وسيلة لتفسير الآيات الكريمة، والأحاديث النبوية. وغمطوا من حق الصنعة ووضعوا من قدر المحدثين، لا لشيء سوى أنهم محدثون(١).

---

(١) قال القاضى عبد العزيز الجرجانى صاحب كتاب "الوساطة بين المتنبى وخصومه": وما أكثر ما نرى ونسمع من حفاظ اللغة وجلة الرواة ممن يلهج بعيب المتأخرين، أن أحدهم ينشد البيت فيستحسنه ويستجيده ويعجب منه ويختاره، فإذا نسب لبعض أهل عصره وشعراء زمانه، كذب نفسه ونقض قوله، ورأى تلك الغضاضة أهون محملا، وأقل مرزاءًا من تسلم فضيلة المحدث، والإقرار بالإحسان المولد. حكى عن اسحق بن إبراهيم الموصلى، أنه قال أنشدت الأصمعى:

هل إلى نظرة إليك سبيل ... فيبل الصدا ويشفى الغليل

إن ما قل منك يكثر عندى ... وكثير ممن تحب القليل

فقال والله هذا الديباج الخسروانى، وأنه لمن تنشدنى؟ فقلت أنهما لليلتهما. فقال لا جرم، واله إن أثر التكلف فيهما ظاهر (ص ٤٧).

بمثل هذا يكون اختلاف الأذواق فى فهم البلاغة من نظم ونثر. وفى القرن السابع عسر فى فرنسا كان فهم الفرنسيين لبلاغتهم غيرها فى القرن الثامن عشر، وغيرها الآن، لأن بلاغتهم كانت غريبة عنهم، لا تمثل شيئًا من مجتمعاتهم، ولا من "شخصياتهم"، وكانوا يقدسون بلاغة اليونان والرومان ويقلدونها فى كل شيء حتى فى الموضوعات، ولم يكونوا أدركوا بعد أن البلاغة صورة الاجتماع، بل فهموها صورة لنفوس عامة، لا "لشخصيات" الأمم، وظنوا أنفسهم عاجزين عن الاختراع والابتكار فى ضروب القول وأساليب البلاغة، إلى أن انتشر مذهب ديكارت الفيلسوف وظهر أثره فى البلاغة، كما ظهر فى الفلسفة وغيرها. (راجع فى هذا الكتاب الكلام على القدماء والمحدثين فى فرنسا).

ولما انصرف المسلمون انصرافًا تامًا إلى الاشتغال بتفسير القرآن الكريم، واهتم العلماء والأدباء منهم بجمع الأشعار واللغة، قالوا إن علوم الأدب جمعاء وسيلة لفهم كتاب الله تعالى. وقالوا إن حكم البلاغة وحكم معرفة العلوم الأدبية الوجوب الكفائى، وشرفها بشرف ما يتوصل إليه. فهى كلها علوم آلية. (كما قال ابن خلدون فى مقدمته) كذلك كان فهم المسلمين للأدب والبلاغة. حتى لقد ترفع كثير منهم عن قول الشعر وذمه ذمًا، لأن السواد الأعظم من الشعراء جعله وسيلة للسؤال، على ما كان له من الرفيعة فى المنزلة والروعة فى المدح والذم. وكان الأمراء والخلفاء يلقون الشعراء ويخافونهم. فلم يكن الشعر والبلاغة صورة من الاجتماع العام أو الخاص. أو شيئًا جديًا فى المجتمع، بل كان شبه ألعوبة للأهواء والأغراض، وتسلية للنفوس. ولم يكن لشاعر أن يقصد إلى تربية النفوس وتهذيب الأخلاق، أو إظهار صورة عامة من صور الحياة، إلا ما جاء عفوًا عند بعض الشعراء الزهاد والحكماء، مثل أبى العتاهية والمتنبى وأبى العلاء. فكانت روح البلاغة أو الروح الأدبية كأنها فى حالة اختناق، لأنها انحصرت فى طائفتين، وكلتا الطائفتين لم تعمل على رقيها كما كان ينبغى: فطائفة العلماء والمشتغلين بالدين والعلوم العربية اهتموا بالبلاغة من أجل ذلك فقط. فكان همهم الجمع والدرس، لا لشرح هذه البلاغة من حيث أنها بلاغة، أو من حيث أنها أثر أدبى، أو من حيث أنها نتيجة جهد العقول والقرائح، بل لأنها وسيلة من وسائل حفظ اللغة وفهم مفرداتها.

وعلى ذلك انتشر هذا المذهب، وبنى النقد الأدبى، بل لم يفهم الأديب أو اللغوى أو العالم، الأدب إلا من هذه الوجهة. ومن هنا قالوا الغرض من

الأدب التوصل إلى فهم كتاب الله تعالى. روى الجاحظ عن محمد بن على بن عبد الله بن عباس أنه قال: "كفاك من علم الدين أن تعلم ما لا يسع جهله، وكفاك من علم الأدب أن تروى الشاهد والمثل[1] وقيل لعمر بن عبيد: ما البلاغة؟ قال "ما بلغ بك الجنة، وعدل بك عن النار. وما بصرك مواقع رشدك وعواقب غيك"[2].

هكذا فهم طائفة العلماء الأدب والبلاغة، وفسروهما على حسب فهمهم. ولم يكن هناك غيرهم من النقاد والعلماء الذين يمكنهم أن يؤثروا فى الحركة الفكرية بغير ذلك، ولا من كان لآرائهم ما لهؤلاء من القوة والسلطان على الأدب والأدباء. فزجوا بالأدب والبلاغة فى هذا السبيل، وأصبح الشعر شيئًا "ثانويًا" كما يقولون لأن هم العلماء والنقاد لم يكن متجهًا لفهم البلاغة فهمًا حقيقيًا. سأل سائل أحد هؤلاء العلماء عن حد البلاغة، فأجابه : "إنك إذا أردت تقرير حجة الله تعالى فى عقول المتكلمين، وتخفيف المؤونة على المستمعين، وتزيين تلك المعانى فى قلوب المريدين بالألفاظ المستحسنة فى الآذان، المقبولة عند أهل الأذهان، رغبة فى سرعة استجابتهم ونفى الشواغل عن قلوبهم بالموعظة الحسنة من الكتاب والسنة، كنت أوتيت فصل الخطاب، واستوجبت من الله جزيل الثواب"[3] أما الطائفة الثانية، وهى جماعة الشعراء والخلعاء، فقد كانت تتخذ البلاغة - خصوصًا الشعر - آلة من آلات اللهو والطرب والاستجداء. وحسبنا أن نرجع إلى

(١) البيان والتبيين جـ ١ ص ٤٩.

(٢) البيان والتبيين جـ ١ ص ٤٣.

(٣) البيان والتبيين جـ ١ ص ٦٣.

الشعر والشعـراء مدة الأمويين والعباسيين، حـتى عند الحكماء منهم مثل أبى الطيب وغيـره. وحتى كان فهم النقـاد أنفسهم للشعـر فهمًا غـريبًا. لأنا إذا سردنا أقوالهم وآراء الأدباء، رأيناها غير محتوية على النقد "التحليلى" لمعانى الشعر. ومن يراجع مقدمـة ديوان أبى نواس وكلام أبى حاتم، ير كيف كانت آراء النقاد، وأنها ليست إلا ألفاظًا مرصوفة غامضة المعنى، يقولها كل إنسان، ليس فيهـا شىء من النقد الصحيح. وأبو حاتم السجـستانى توفى فى أواسط القرن الثـالث الهجرى، أى إبان نضوج العلم والأدب عند العـرب. فالذنب ليس على الشعراء ولا على الكتاب فى ذلك، لأنهم كتبوا ونظموا كثيرًا وقالوا فى كل شىء وطرقـوا كل باب أوحت إليهـم به نفوسـهم وقرائحـهم. ولكن حركـة النقد لم تـكن لديها القـوة التى كانت تمكنهـا من الحكم على الآراء، وقود الحركـة الفكرية، ونقل الأدب والبلاغة إلى طريق اجتمـاعى أفيد وأمتن وأفضل مما سارت فيـه. بل ساعدت على وقوف البلاغة من شـعر ونثر، فلم تصل البلاغة العربية من التأثير فـى الاجتماع والتأثر منه، إلى ما وصلت إليه بلاغات الأمم الأخرى. وتعود فنقول لو وهب الله الأدب العربى من النقاد ما نبه العقول إلى فهم البلاغـة فهمًا اجتماعيًا، وبحث فيها مـباحث اجتماعية، وبين أنهـا عامل مـن عوامل الاجـتمـاع، لكانت فى نوعـهـا أحسن بلاغـة وأمتـعها. لما للغـة العربية من الميـزة فى الغناء، وضروب التعـبير، وجـمال القول، ومـتانة الأسلوب. خصوصًـا الصناعة اللفظية التى لا توجـد فى لغة أخرى.

إن كل حركة ظهـرت فى بلاغات الأمم لأخرى، ونقلتـها من حال إلى حال، كـان منشؤها آراء النقـاد وأفكارهم وإرشاداتهم. كـحركة الكـتابة التى

ظهـرت فى أوروبا أثناء القـرن التـاسع عـشـر. فـقـادت الأدباء إلى الطرق المختلفة، وأوجدت الأطوار الأدبية المعروفة.

* * *

obeikandl.com